تراث الإسلام

٢

أدب الدنيا والدين

لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي

المتوفى سنة ٤٥٠ هـ

حققه وعلق عليه المرحوم

مصطفى السقا

الأستاذ بكلية الآداب بجامعة القاهرة « سابقا »

الطبعة الرابعة

١٣٩٣ هـ = ١٩٧٣ م

(حقوق الطبع محفوظة)

ملتزم الطبع والنشر

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

محمد محمود الحلبي وشركاه - خلفاء

رضى الله عنه : عُقْبى الأخرق مَضَرَّة ، والمتعسِّف لا تدوم له مَسَرَّة ، وقال بعض الحكماء : القصد أسهل من التعسُّف، والكف أودَع من التكلّف، وربما تتبّع نفس الإنسان مَن بعُد عنه استهانة بمن قرب منه ، وطلَبَ ما صعب ، احتقارا لما سَهُل عليه ، وانتقل إلى من لم يخبُرْه ، مَلَلا لمن خبره ، فلا يدرك محبوبا ، ولا يظفر بطائل ، وقد قالت العرب فى أمثالها : العالم كالكعبة ، يأتيها البُعَداء ، ويزهد فيها القُرَباء ، وأنشدنى بعض شيوخنا لمسيح بن حاتم :

لا ترى عالما يحِلّ بقوم فيُحِلُّوه غيرَ دار الهوانِ
قلَّما توجد السلامةُ والصحةُ مجموعتين فى إنسانِ
فإذا حَلّتا مكانا سحيقاً فهما فى النفوس مَعْشوقتان
هذه مكةُ المنيعة بيتُ الله يسعَى لحجها الثّقَلانِ
وترى أزهد البرية فى الحجِّ لها أهلها لقرب المكان

فصـــل

[ما يجب أن تكون عليه أخلاق العلماء] فأما ما يجب أن يكون عليه العلماء من الأخلاق، [هى] التى بهم أليق ، ولهم ألزم، فالتواضع، ومجانبة العُجْب، لأن التواضع عَطُوف، والعجب مُنَفِّر ، وهو بكل أحد قبيح، وبالعلماء أقبح ، لأنَّ الناس بهم يقتدون ، وكثيرا ما يداخلهم الإعجاب ، لتوحدهم بفضيلة العلم ، ولو أنهم نظروا حق النظر ، وعملوا بموجب العلم، لكان التواضع بهم أولى ، ومجانبة العُجْب بهم أحرى، لأن العُجْب نقص ينافى الفضل، لاسيما مع قول النبى صلى الله عليه وسلم : « إن العُجْب ليأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » ، فلا يفى ما أدركوه من فضيلة العلم ، بما لحقهم من نقص العُجْب . وقد روَى عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « قليل العلم خير من كثير العبادة». وكفى بالمرء علما إذا عبد الله عز وجلّ ، وكفى بالمرء جهلا إذا أُعجب برأيه . وقال عمر ابن الخطاب رضى الله عنه : تعلّموا العلم ، وتعلموا للعلم السكينة والحلم، وتواضعوا لمن تتعلّمون منه ، ليتواضع لكم من تعلمونه، ولا تكونوا من جبابرة العلماء، فلا يقوم علمكم بجهلكم . وقال بعض السلف : من تكبّرَ بعلمه وترفع، وضعه الله به ، ومن تواضع بعلمه رفعه الله به .

وعلة إعجابهم انصراف نظرهم إلى كثرة من دونهم من الجهال ، وانصراف نظرهم عمن فوقهم من العلماء ، فإنه ليس متناه فى العلم إلا وسيجد من هو أعلم منه ، إذ العلم أكثر من أن يحيط به بشر . قال الله تعالى : « نرفعُ درجاتٍ من نشاء ، وفوقَ كلِّ ذى علم عَليم » ، يعنى فى العلم . قال أهل التأويل : يعنى فوق كل ذى علم مَنْ هو أعلم منه، حتى ينتهى ذلك إلى الله تعالى. وقيل لبعض الحكماء : من يعرفُ كل العلم؟ قال: كلُّ الناس. وقال الشعبىّ: ما رأيت مثلى وما أشاء أن ألقَى رجلا أعلم منى إلا لقيته . لم يذكر الشعبىّ هذا القول تفضيلا لنفسه، فيُستقبح منه ، وإنما ذكره تعظيما للعلم عن أن يحاط به ، فينبغى لمن عَلِم ، أن ينظر إلى نفسه، بتقصير ما قصر فيه ، ليسلم من عُجْب ما أدرك منه . وقد قيل فى منثور الحكم : إذا علمتَ فلا تفكر فى كثرة من دُونك من الجهال ، ولكن انظر إلى من فوقك من العلماء .

وأُنشدْتُ لابن العميد :

من شاء عيشا هنيئا يستفيدُ به فى دينه ثم فى دنياه إقبالا
فلينظرَنَّ إلى من فوقه أدبا ، ولينظُرَنَّ إلى من دونه مالا

وقلما تجد بالعلم مُعْجَبا، وبما أدركه منه مفتخرا، إلا من كان فيه مُقِلّا ومقصِّرا ، لأنه قد يجهل قدره ، ويُحْسَب أنه نال بالدخول فيه أكثره ، فأما من كان فيه متوجِّها ، ومنه مستكثرا ، فهو يعلم من بعد غايته، والعجز عن إدراك نهايته، ما يصدُّه عن العُجْب به . وقد قال الشعبىّ : العلم ثلاثة أشبار ، فمن نال منه شبرا شمخ بأنفه ، وظن أنه ناله. ومن نال الشبر الثانى صغرت إليه نفسه ، وعلم أنه لم ينله ؛ وأما الشبر الثالث فهيهات ، لا يناله أحد أبدا .

ومما أنذرك به من حالى ، أنى صنفت فى البيوع كتابا، جمعت فيه ما استطعت من كتب الناس ، وأجهدت فيه نفسى ، وكددت فيه خاطرى ، حتى إذا تهذّب واستكمل، وكدت أُعْجَب به ، وتصوّرت أننى أشد الناس اضطلاعا بعلمه ، حضرنى وأنا فى مجلسى أعرابيان ، فسألانى عن بيع عقداه فى البادية ، على شروط تضمنت أربع مسائل، لم أعرف لواحدة منهن جوابا ؛ فأطرقت مفكرا ، وبحالى وحالهما معتبرا . فقالا: ما عندك فيما سألناك جواب وأنت زعيم هذه الجماعة ؟ فقلت : لا . فقالا : واهاً لك ؛ وانصرفا، ثم أتيا من يتقدمه فى العلم كثير من أصحابى، فسألاه ، فأجابهما مسرعا بما أقنعهما ، وانصرفا عنه راضيين بجوابه ، حامدين

لعله ، فبقيت مرتبكا ، ومحالها وحالي معتبرا . وإني اعلى ما كنت عليه في تلك المسائل إلى وقتي ، فكان ذلك زاجرَ نصيحة ، ونذيرَ عِظَة ، تذلَّلَ بهما قياد النفس ، وانخفض لهما جناح العُجْب ، توفيقا مُنِحتُهُ ، ورُشْدا أوتيتهُ . وحُقّ على من ترك العُجْب بما يُحْسِن، أن يدع التكلف لما لا يُحْسِن ، فقد نهى الناس عنهما ، واستعاذوا بالله منهما .

ومن أوضح ذلك بيانا، استعاذة الجاحظ في كتاب البيان[1]، حيث يقول : «اللهم إنا نعوذ بكَ من فتنة القول ، كما نعوذ بك من فتنة العمل ، ونعوذ بك من التكلف لما لا نحسن ، كما نعوذ بك من العجب بما نحسن، ونعوذ بك من شر السلاطة والهذر[2] ، كما نعوذ بك من شر العِيّ والحصر[3] » . ونحن نستعيذ بالله تعالى مثل ما استعاذ، فليس لمن تكلف ما لا يحسن غاية ينتهي إليها ، ولا حدٌّ يقف عنده ، ومن كان تكلفه غير محدود ، فأخلق به أن يَضِلَّ ويُضِلَّ . وقد رُوى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مَنْ سُئِلَ فأفتى بغير علم ، فقد ضلّ وأضل » . وقال بعض الحكماء : من العلم أن لا تتكلم فيما لا تعلم ، بكلام من يعلم ، فحسبك جهلا من عقلك ، أن تنطق بما لا تفهم ، ولقد أحسن زِيَادَةُ بن زيد، حيث يقول :

إذا ما انتهى علمي، تناهيتُ عِنْدَهُ ... أطال فأملى ، أو تناهى فأقصرا[4]

ويُخْبرني عن غائب المرءِ فعلُهُ ... كفى الفعلُ عما غيَّبَ المرء مُخْبِرا

فإذا لم يكن إلى الإحاطة بالعلم سبيل ، فلا عار أن يجهل بعضه ، وإذا لم يكن في جهل بعضه عار، لم يقبح به أن يقول لا أعلم ، فيما ليس يعلم .

ورُوِي أن رجلا قال : يا رسول الله، أيّ البقاع خير، وأيّ البقاع شر؟ فقال: لا أدري حتى أسأل جبريل . وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : وا بردها على القلب ! إذا سُئِلَ أحدكم فيما لا يعلم، أن يقول الله أعلم، وإن العالم مَنْ عرف أن ما يعلم فيما لا يعلم قليل . وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : إذا ترك العالم قول لا أدري، أُصيبت مقاتله . وقال

(١) مفتتح الجزء الأول من البيان والتبيين .
(٢) السلاطة : حدة اللسان . والهذر : إكثار الكلام بغير فائدة .
(٣) الحصر : العي ، وعدم القدرة على البيان ، حياء أو خوفا أو ضعفا .
(٤) أملى : اتسع ، وأصله مل من الإملال وهو الإضجار بكثرة الكلام .

بعض العلماء : هلك من ترك لا أدرى . وقال بعض الحكماء : ليس لي من فضيلة العلم إلا علمي بأني لست أعلم . وقال بعض البلغاء : مَنْ قال لا أدري عُلِّمَ فَدَرى ، ومن انتحل[1] ما لا يدرى أُهمِلَ فهَوَى : ولا ينبغى للرجل وإن صار في طبقة العلماء الأفاضل ، أن يستنكف من تعلم ما ليس عنده، ليسلم من التكلف له . وقد قال عيسى بن مريم على نبينا وعليه السلام : ياصاحب العلم تعلم من العلم ما جَهِلت ، وعلم الجهال ما علمت ، وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه : خمسٌ خذوهن عني ، فلو ركبتم الفُلكَ ما وجدتموهن إلاّ عندي : ألا لا يَرْجُوَنَّ أحدٌ إلاّ ربّه ، ولا يخافنَّ إلاّ ذنبه ، ولا يستنكف العالم[2] أن يتعلم ما ليس عنده ، وإذا سُئِل أحدكم[2] عما لا يعلم ، فليقل لا أعلم ، ومنزلة الصبر من الإيمان ، بمنزلة الرأس من الجسد . وقال عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما : لو كان أحد يكتفي[3] من العلم ، لاكتفى منه موسى على نبينا وعليه السلام ، ولما قال : هل أتبعك على أن تعلمن مما عُلِّمْتَ رُشْدا . وقيل للخليل بن أحمد : بم أدركت هذا العلم ؟ قال : كنت إذا لقيت عالما أخذت منه وأعطيته . وقال بُزُرْجَمِهْر : من العلم ألاّ تحقر شيئا من العلم، ومن العلم أن تفضِّل[4] جميع العلم . وقال المنصور لشريك[5] : أنّى لك هذا العلم؟ قال : لم أرغب عن قليل أستفيده ، ولم أبخل بكثير أفيده . على أن العلم يقتضي ما بقي منه ، ويستدعي ما تأخر عنه ، وليس للراغب فيه قناعة ببعضه . وروى عون ابن عبد الله ، عن ابن مسعود رضي الله عنه ، أنه قال : « مَنْهُومان[6] لا يَشْبَعان : طالب علم وطالب دُنيا » ، أما طالب العلم فإنه يزداد من الرحمن قربا ، ثم قرأ : « إنما يخشَى اللهَ من عباده العلماء » . وأما طالب الدنيا ، فإنه يزداد طغيانا ، ثم قرأ : « كلا إن الإنسان ليطغى ، أن رآه استغنى » : وليكن مستقلا للفضيلة منه ، ليزداد منها ، ومستكثرا للنقيصة فيه ، لينتهي عنها ، ولا يقنع من العلم بما أدرك ، لأن القناعة فيه زهد ، والزهد فيه ترك ، والترك له جهل . وقد قال بعض الحكماء : عليك بالعلم والإكثار منه ، فإن قليله أشبه شيء بقليل الخير ،

(١) انتحل » ادعى . (٢) ساقطة من الطبعة الأميرية .
(٣) في الأميرية : مكتفيا . (٤) في الأميرية : تفضيل .
(٥) المنصور هو أبو جعفر بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، استخلف بعد أخيه أبي العباس السفاح . ولد سنة خمس وتسعين ، وتوفي سنة ١٥٨ هـ . وشريك : هو أبو عبد الله بن عبد الله النخعي ، كان من الفقهاء والمحدثين (٩٥ – ١٧٧ هـ) . (٦) المنهوم : شديد الشهوة المكب على الشيء طلبا لحيازته .